عبد الجبار علوان

أفصحية لهجة قريش

بين
النفي والاثبات

يجدر بنا ان نقدم للبحث بمقدمة موجزة نبين فيها معنى الفصاحة في اللغة، لكي نكون على بينة من الامر حين نبحث ما امتازت به لهجة قريش من افصحية. «الفصاحة في اللغة : البيان» (١) ، والفصيح : « المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه» (٢) ،قال احمد بن فارس «الفاء والصاد والحاء اصل يدل على خلوص في شيء ، ونقاء من الشوب ، من ذلك : اللسان الفصيح : الطليق» (٣) . وقال تعالى على لسان موسى (ع) : «واخي هرون هو افصح مني لساناً »(٤) أي اكثر مني طلاقة وابانة عما يريد قوله. وبالمقارنة بين اخوات اللغة العربية من الفصيلة السامية نجد تشابهاً في معنى الفصاحة، ففي الاشورية (P.L.S.U) ومعناها : صاف خالص ، او بين لامع ، وفي الارامية (Pas.s. h.) ومعناها بين واضح لامع (٥) . ومن هنا فان الفصاحة هي: الابانة في القول والاعراب عما في النفس بعبارة بليغة واضحة ، ولسان طلق مبين (٦) .

امتازت لهجة قريش والحجاز بأنها كانت مأنوسة الالفاظ ، عذبة الجرس غزيرة المادة ، رقيقة الاسلوب ، فقد « ارتفعت في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن » (٧) لانها « خلت من مستبشع

(١) لسان العرب ٣/٢٧٧ .
(٢) لسان العرب ٣/٢٧٨ .
(٣) معجم مقاييس اللغة ٤/٥٠٦-٥٠٧ .
(٤) القصص آية ٣٤ .
(٥) The Encyclopaedia of Islam 2.Vol.1, P.567 Col.2
(٦) انظر مختار الصحاح، ص ٥٠٤ .
(٧) قاله ابو العباس ثعلب في مجالسه١/٨٠-٨١ . والعنعنة صفة في لهجة قيس وتميم أنهم كانوا يجعلون الهمزة المبدوء بها عيناً فيقولون في أنلك : عنك وفي أسلم : عسلم وفي اذن : عذن، والكشكشة صفة في لهجة ربيعة ومضر، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً، فيقولون : رأيتكش، وبكش، وعليكش، والكسكسة : صفة في لهجة بني بكر بن وائل . يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر سيناً، فيقولون : اكرمتكس وبكس أي اكرمتك وبك ، (الكامل ١/٣٧١ والمزهر ١/١٣٣) .

اللغات ومستقبح الالفاظ» (١) ولهذا عدها الاقدمون أفصح لهجات العرب، قال ابن خلدون : « كانت لغة قريش افصح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ،ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وتميم » (٢) .

ويبدو ان افصحية لهجة قريش شيء متفق عليه بين علماء العربية ،يؤيد هذا قول احمد بن فارس: «اجمع علماؤنا بكلام العرب ،والرواة لاشعارهم ،والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً افصح العرب ألسنة واصفاهم لغة» (٣) كما كان فصحاء العرب يعرفون بعد قريش في الفصاحة، فقد ذكر الجاحظ أن رجلا (٤) رد على سؤال وجهه معاوية بن ابي سفيان لجلسائه عن افصح الناس ، بأنهم قريش وذلك لأنهم كما قال : « قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر» (٥) فتركوا هذه اللهجات وامثالها من اللهجات غير الفصيحة او المستبشعة الرديئة .

كانت فصاحة قريش مقياساً تقاس به فصاحة القبائل العربية الاخرى والدليل على هذا قول ابي العباس المبرد : « كل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه ، وانما يقال : بنو فلان افصح من بني فلان ، اي اشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش »(٦) كما كانت لهجة قريش ترجح على غيرها عند تعارض اللغات ، فسيبويه يستشهد بها في مواضع عديدة من كتابه ، قال في الكتاب: « قولك مررت به وحده ،ومررت بهم وحدهم ، ومررت برجل وحده،

---

(١) قاله الفراء : انظر الاقتراح، ص ٨١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٥٥ .

(٣) الصاحبي في فقه اللغة، ص ٢٣ .

(٤) في (الكامل للمبرد ١/٢٧٠): أن هذا الرجل من قبيلة جرم، وجرم بشهادة الاصمعي من فصحاء الناس .

(٥) البيان والتبيين ٣/١٣٧ . واللخلخانية كانت تعرض في ألسنة اعراب الشعر وعمان فيقولون: مشا الله كان . اي ماشاء الله كان .المزهر ١/١٣٤ .

(٦) الفاضل، ص ١١٣ .

ومثل ذلك في لغة اهل الحجاز : (١) مررت بهم ثلاثتهم واربعتهم وكذلك الى العشرة » (٢) ويفضلها على غيرها من اللهجات كلهجة بني تميم فيقول : «ومن كلامهم ان يشبهوا الشيء بالشيء وان لم يكن مثله في جميع الاشياء... فأما ما كان آخره راءا فان اهل الحجاز وبني تميم فيه متفقون ، ويختار بنو تميم فيه لغة أهل الحجاز كما اتفقوا في يرى ،والحجازية هي اللغة الاولى القدمى»(٣) أو يقول : « ودعاهم سكون الاخر في المثلين ان بين اهل الحجاز في الجزم فقالوا : اردد ولاتردد ، وهي اللغة العربية القديمة الجيدة » (٤) .

اما ابو زكريا الفراء فيقول : « الزوج يقع على المرأة والرجل ، هذا قول اهل الحجاز ، قال الله عز وجل (أمسك عليك زوجك) (٥) واهل نجد يقولون : زوجة، وهو اكثر من زوج ، والاول افصح عند العلماء » (٦) وقد أنكر الاصمعي على ذي الرمة استعماله (زوجة) في بيت من شعره :

أذو زوجةٍ في المصر ام ذو خصومة؟ أراك لها بالبصرةِ اليومَ ثاوياً

وكان لايعتبر ذا الرُّمة حجة ، لاستعماله كلمات لايراها الاصمعي فصيحة(٧). وعلى هذا النهج في تفضيل لهجة قريش « او الحجازية » سار العلماء عبر القرون . يقول ابن هشام (٨) :«اعمال ما عمل ليس،وهي لغة الحجازيين، وهي اللغة القوية وبها جاء التنزيل . قال الله تعالى : « ماهذا بشراً » (٩) و(ماهن امهاتهم) (١٠) .

---

(١) المقصود بلغة الحجاز هو : لغة قريش سكان مكة وما يجاورها من حواضر الحجاز وهي تمثل اللهجة الغربية .

(٢) الكتاب ١/١٨٧ .

(٣) الكتاب ٢/٤٠-٤١ .

(٤) الكتاب ٢/٤٢٤ .

(٥) سورة الاحزاب من الآية ٣٧ .

(٦) المذكر والمؤنث ، ص ٢٦ .

(٧) الخصائص ٣/٢٩٥ .

(٨) شرح قطر الندى ١٤٣ وقارنه بكتاب سيبويه ١/٣٨، ومجالس ثعلب ٢/٥٩٦ .

(٩) سورة يوسف من الآية ٣١ .

(١٠) سورة المجادلة من الآية ٢ .

على الرغم مما ذكرناه آنفاً من اعتداد أئمة النحو واللغة الاقدمين بفصاحة لهجة قريش او الحجاز ، واعتبارهم اياها افصح لهجة عربية ، وترجيحهم لها على اللهجات الاخرى واستشهادهم بها ، تشكك قسم من المستشرقين في ذلك ، ذاهبين مذاهب شتى في هذا التشكيك وسنعرض آراءهم ونتناولها بالنقد ليظهر زيفها وبطلانها .

قال المستشرق الالماني (نولدكه) :« اما الروايات التي تقول بأن لهجة قريش أحسن اللهجات العربية كلها ، فان بعضها مخترع ، وفي بعضها مجاملة للحكام الذين ينحدرون من قبيلة قريش » (١) فهو يشكك في الروايات القديمة التي تقدم ذكرها اول البحث ويزعم ان بعضها مخترع ، كما يشكك فيما ذكره الجاحظ عن الرجل الجرمي في تفضيل لهجة قريش الذي أجاب رداً على سؤال معاوية عن افصح اللهجات بانها لهجة قريش .

والحق ان كلام (نولدكه) مجرد ظن لاسند له يدعمه من رواية تاريخية او ادلة مادية ، ونحن نقول : ان تلك الروايات صادقة ،مروية عمن عرف بالصدق ، ولا يوجد ما ينقضها ، وما يدرينا بأن قول الرجل الجرمي كان زلفى لمعاوية ؟ والعربي — ولا سيما في ذلك الزمن — جبل على قول الصدق والصراحة ، ولو كان في ذلك قطع رقبته ، والتاريخ العربي حافل بمئات الامثلة والشواهد على مجابهة الافراد الحكام والخلفاء معارضين سياستهم وآراءهم علناً ، مما اودى بحياتهم .

أما ريجيس بلاشير فيقول : « إن مبدأ وجود لغة فصحى ،مضافاً اليها شعور ديني قد أوصل النحاة المسلمين إلى المحاكمة القياسية الآتية :

« إن القرآن يمثل العمود اللغوي، وبما أن القرآن قد اوحي إلى محمد سليل قبيلة قريش المكية ،فالقرآن إذن أنزل بلغة قريش ،ولذا كان العمود اللغوي الذي يجب أن يحتذى هو في لهجة القبيلة المذكورة » (٢) ثم يعزز بلاشير رأيه

(١) اللغات السامية، ص ٧٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربي، ص ٨٤ .

فيقول :« وفي الحق فانه غير معقول ان تظل لغة مدينة تجارية كمكة ، والتي هي إلى جانب هذا مركز الحج السنوي في معزل عن التأثيرات الخارجية » (١)

ونحن نؤيد أن الاختلاط لايبقي اللغة في معزل عن التأثيرات الخارجية ولانقول إن لهجة قريش « سلمت من تأثيرات اللهجات الأخرى ، فمن المقرر في قوانين اللغات أن اللغة المنتصرة لاتخرج سليمة من صراعها بل إن طول احتكاكها باللغات الأخرى وشدة كفاحها معها يترك في اللغة الغالبة آثاراً كثيرة من اللغات المغلوبة في نواحي الاصوات والقواعد والأساليب والمفردات ويبدو هذا التأثر بأوضح صورة في النواحي التي تعوز اللغة الغالبة ، فاللغةالغالبة تعمد في العادة إلى خصمها المقهور فتمتص منه ماتحتاج اليه وتستل منه مايعوزها قبل أن تجهز عليه ... وان كان التأثر بين اللغات يحدث بطريقة تلقائية لاعن قصد أو تدبر » (٢)

ومن هنا فان الاختلاط أفاد لهجة قريش بمساعدة العوامل الأخرى التي سنأتي على ذكرها ، فان الخصائص التي تميزت بها لهجة قريش وجعلت منها اللغة الفصحى « لاتميز لغة قريش لذاتها ، بل لتمثلها خير مافي اللهجات العربية الصحيحة بالتوليد والاشتقاق وخير مافي اللغات الاجنبية بالنقل والتعريب. ذلك بأن العرب حين استصفوا لهجة قريش وجعلوها لغتهم الادبية المشتركة أثروا فيها مثلما تأثروا بها ، فصدق على لهجة قريش مايصدق على كل كل اللغات من قوانين التأثر والتأثير ، وهي قوانين لا تكاد تتخلف اذا درسنا اللغة على انها ظاهرة انسانية » (٣) كما فات بلا شيد « ان سلامة اللغة من دخول الدخيل فيها امر غير الفصاحة ، وان سلامة اللغة كانت في بني سعد خيراً مما هي في قريش لأنهم اهل وبر ، وابعد عن التجارة وعن الاختلاط بالناس ، وعلى العكس من ذلك قريش فهم اهل مدر ، وكثير منهم كان يرحل إلى الشام ومصر وغيرهما ويتاجر مع اهلها ، ويسمع لغتهم

(١) المصدر نفسه، ص ٨٥ .

(٢) فقه اللغة، ص ١١١ .

(٣) دراسات في فقه اللغة، ص ١٠٩ .

/٣٠/أ

فهم من ناحية سلامة اللغة ينطبق عليهم ماانطبق على غيرهم ممن خالط الامم الاخرى ، ولكنهم من ناحية الفصاحة فصحاء ، وأعني بالفصاحة قوة التعبير عما في نفوسهم ، وقد اشتهروا بذلك ايضا في الاسلام . يضاف إلى هذه الفصاحة ماحكي عنهم من رقة السنتهم ، وحسن اختيارهم للالفاظ »(١) قال قتادة بن دعامة السدوسي « المتوفى سنة ١١٧ هـ » : « كانت قريش تجتبي — اي تختار — افضل لغات العرب حتى صار افضل لغاتها لغتها ، فنزل القرآن الكريم بها » (٢)

اما عن لغة القرآن وبأية لهجة كان نزوله فسنتعرض اليه بعد ان نذكر كلام المستشرق الايطالي (كارلونلينو) إذ قال : « إن كانت قريش افصح العرب فلماذا نقلت اللغة عن غيرها ، فبدل ان يستشهد النحاة واللغويون بقريش اقتبسوا العلم من اشعار الجاهلية او عربان البادية ؟ لماذا لم يسأل المفسرون اهل مكة عن تفسير غريب القرآن لو كان التنزيل بلغة قريش ؟ وانما استفادوا من قديم الشعر غير القرشي كمايتضح من كتب اللغة» (٣) ثم يختتم بحثه بالقول :

« فلا شك للمتروي في هذه المسألة ترويا منصفا خاليا عن الاغراض ان الناس ماذهبوا إلى القول بفضل لغة قريش على غيرها من لغات العرب الا حباً واكراما لقبيلة النبي وانهم انفسهم لم يعملوا به في مباحثهم اللغوية » (٤)

ان جوابنا على (نلينو) يجرنا إلى الحديث عن اللهجة التي نزل بها القرآن .

فقد ذكر الأقدمون : أن القرآن نزل بلغة قريش مستندين الى « ان عثمان (رض) قال لما رفعوا اليه اختلافهم في « التابوه » و « التابوت» إثبتوه بالتاء فانه

---

(١) ضحى الاسلام ٢٤٧/٢ .

(٢) المواهب الفتحية ٥٤/١ .

(٣) مجلة الهلال الجزء الأول السنة ٢٦ . اكتوبر ١٩١٧ . بحث : كيف نشأت العربية ، ص ٤٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

لغة قريش ، وانما انزل القرآن بلغة هذا الحي من قريش . ولو كان عنده أثر من قراءة النبي (ص) « التابوه » لقال اثبتوه كذلك إذ هو قراءة النبي عليه السلام » (١) ومن ذلك قول عثمان لرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما انزل بلسانهم » (٢) وقال عمر (رض) : لايملين في مصاحفنا الاغلمان (قريش) و (ثقيف) (٣) وعندما سمع رجلا يقرأ (عتى حين) لم يرض عن قراءته « فقال : من اقرأك ؟ قال : ابن مسعود . فكتب اليه : إن الله انزل هذا القرآن فجعله عربياً وانزله بلغة قريش فأقرئ الناس بلغة قريش ولاتقرئهم بلغة هذيل (٤) » « وعن ابن عباس (رض) في قوله عز وجل : « بلسان عربي مبين» قال: « بلسان قريش، ولو كان غير عربي مافهموه » (٥) هذه الروايات تؤكد نزول القرآن بلهجة قريش ، ومع ثقتنا بها وهي حجة لنا فلا نقول : إن القرآن كله نزل بلهجة قريش، استناداً الى الدراسات الحديثة بل من باب التغليب، لان القرآن فيه من خصائص اللهجات الاخرى كتحقيق الهمزة مثلا وهو من خصائص لهجة تميم واكثر البدو ، على حين ان اهل الحجاز وهذيل يسهلون الهمزة ولا يحققونها (٦) ، ولذا نؤيد قول الباقلاني ان « معنى قول عثمان انه انزل بلسان هذا الحي من قريش اي معظمه واكثره نزل بلغتها ولم تقم حجة قاطعة على ان القرآن بأسره نزل بلغة قريش ، بل ثبت ان فيه همزاً ، وقريش لاتهمز وثبت ان فيه حروفاً وكلمات بغير لغة قريش » (٧) فتحقيق الهمزة من صفات اللغة النموذجية الأدبية ، التي « اتخذت معظم صفاتها من البيئة الحجازية ، وقد تضمنت أيضاً بعض الصفات

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن، ص ٣٨٥ .
(٢) الفهرست ، ص ٤٣ ، النشر في القراءات العشر ١/٧ ، فضائل القرآن، ص ٣١ .
(٣) الصاحبي في فقه اللغة، ص ٢٨ ، فضائل القرآن، ص ٦٧ .
(٤) الكشاف ٢/٢٥٥ .
(٥) اللغات في القرآن، ص ١٩ . وقارنه بكتاب فضائل القرآن، ص ١٩ أيضاً .
(٦) انظر لسان العرب ١/١٤ .
(٧) نكت الانتصار لنقل القرآن، ص ٣٨٥ .

القليلة التي تنتمي لبيئة اخرى ، ومن بينها تحقيق الهمز الذي عرفت بهتميم واكثر البدو » (١) ، « فاللغة الفصحى اخذت من لهجة تميم كما اخذت من لهجة قريش ، الا ان مااخذته من لهجة قريش كان اكثر » (٢) .

اما عن تطور هذه العربية القرآنية فمن الصعب أن نتتبع هذه اللغة في الفترات الاولى من تاريخها فهي « قديمة بخصائصها وان لسان النقوش التي دونت في القرنين الثالث والرابع الميلاديين هو نفسه اللسان العربي الشمالي الذي كان لقريشوسكان نجد والحجاز بكلمانعرف من صفاته وخصائصه» (٣).

إن اقوال المستشرقين -- ومنهم نلينو — مبنية على الحدس والتخمين في اصل العربية الفصحى ولغة القرآن ، اذ ليس هناك من دليل مادي يؤيد مزاعمهم ، وهاهو ذا (فانيتنو) يذهب إلى « أن اللغة العربية الفصحى المبني جانب منها على لغة شعرية قديمة كانت في بلاد العرب الوسطى والجانب الآخر منها مبني على لهجة قديمة هي لغة الحجاز » (٤) و « رابين » يتطرق إلى الموضوع ذاته ويؤكد عدم وجود الدليل المادي ، وان المعلومات عنها لاتكاد تذكر، ومع ذلك يرجح ان تكون اللهجات الغربية اقرب إلى العربيةالقديمة وان للهجة الحجاز أثراً في القرآن ،يقول (رابين): « وعلى الجملة يبدو أن اللهجات الغربية(اي الحجازية) كانت اقرب إلى حد ما إلى العربية القديمة ، على انه يحتمل ان الخلف الحقيقي للعربية القديمة هي لهجات قضاعة ، التي يجري الكلام بها في نفس المنطقة التي شغلتها الاولى (العربية القديمة) بيد ان معلوماتنا عنها لاتكاد تذكر ،ومن ناحية اخرى ليس لدينا مواد منقوشةمن هذه المناطق حيث كانت اللهجات الشرقية او الغربية مستخدمه ، كما تستطيع ان ترى ان لغة القرآن تنزل مابين اللغة الخاصة بالشعر ولهجة الحجاز

(١) في اللهجات العربية، ص ٧٨ .

(٢) الوجيز في فقه اللغة، ص ١٠٣ . وقارن بكتاب اللغات في القرآن/مقدمة المحقق ص ٥ .

(٣) الوجيز في فقه اللغة، ص ١٣٢ .

(٤)مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ١٥ الجزء ٣ و ٤/١٩٣٧م، تأملات عامة في اللهجات العربية، ص ١٤٠-١٤١ .

ويميز اسلوب الشاعر المكي عمر بن ابي ربيعة مزيج من هذه العناصر مختلف اختلافاً قليلا » (١) و (رابين) يتردد في اصدار الاحكام النهائية القاطعة فيقول « فاما ان امتلاكهم — اي اهل الحجاز — لناصية العربية لم يكن كاملا ، وإما ان محمداً قد اصطنع لهجة مكة غير انه كان متأثراً بالعربية الفصحى التي استعملها الكهان — ولم يصطنع لغة الشعراء الذين ذمهم — واما أنه كان قبل محمد نوع من العربية الفصحى خاص بمكة ربما استعمل في الكتابة « مثل الحسابات التجارية والرسائل » وفي التحدث إلى الجمهور (الخطابة) ولعل الفروق بينها وبين لغة الشعر ترجع جزئيا إلى متطلبات التعبير النثري » (٢).

وهناك من المستشرقين الآخرين من يرى رأينا في أفصحية لهجة قريش امثال (كراي) (٣) و (دوم) (٤) اللذين يقبلون دون تردد تطابق العربية الفصحى مع لهجة مكة .

اما كيف تم للهجة قريش ان تتبؤا المكانة المرموقة بين لهجات العرب وان تكون أفصحها ، فهذا هو ماسنتعرض اليه مبينين العوامل التي ساعدت على ذلك :

من الصعب ان نتتبع العربية الفصحى في الفترات الاولى من تاريخها ، ذلك ان النصوص التي اكتشفت والتي تنسب إلى هذه الفترة قليلة وقصيرة ، فهي لاتكفي لدراسة اللغة والوقوف على خصائصها ومراحل تطورها « وأقدم مانستطيع تصوره في شأن شبه الجزيرة العربية هو ان نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، انعزل بعضها عن بعض واستقل كل منها بصفات

---

(١) The Encyclopaedia of Islam 2.Vol .1,P.566 Co 1.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) L.H Gray, Intro duction to Semitic Compartive Lingnistics,1934,P5.

(٤) E Dhorme,Langues et' ecritures Semitigues ,1930 P.53

خاصة . ثم كانت تلك الظروف التي هيأت لبيئة معينة في شبه الجزيرة فرصة ظهور لهجتها ثم ازدهارها والتغلب على اللهجات الاخرى » (١) وهذا شيء حتمي تقرره قوانين اللغات « فانه متى انتشرت اللغة في مساحة واسعة من الارض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس استحال عليهم الاحتفاظ بوحدتها الاولى امداً طويلا ، فلا تلبث ان تتشعب إلى عدة لهجات ولم تفلت اللغة العربية — وما كان يمكن ان تفلت — من هذا القانون العام فقد انقسمت منذ اقدم عصورها إلى لهجات كثيرة يختلف بعضها عن بعض في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات ، واختصت كل قبيلة وكل جماعة متحدة في ظروفها الطبيعية والاجتماعية بلهجة من هذه اللهجات » (٢) ثم ساعدت عوامل مختلفة على اتصال هذه اللهجات واحتكاكها ، ومن هذه العوامل انتقال العرب من مكان إلى مكان آخر في طلب المياه والكلأ وحدوث الحروب الاهلية التي سميت بـ (ايام العرب) او قيامهم بالتجارة وأسفارهم المختلفة من اجلها ، إلى غير ذلك من العوامل التي ادت إلى الصراع اللغوي الذي آل امره إلى انتصار لهجة قريش حيث صارت هي اللغة العربية الفصحى لغة القرآن ، ولغة العلم في حضارة العرب والاسلام إلى يومنا هذا . وهناك عاملان مهمان جعلا لهجة قريش تتغلب على اللهجات الاخرى وتمتاز بالحسن والفصاحة وعذوبة الالفاظ وهما :

١ — مركز مكة الديني والتجاري .

٢ — الاسواق والمواسم .

العامل الاول : مركز مكة الديني منذ القديم وفيها (الكعبة) التي يحج اليها العرب كل سنة من مختلف القبائل في الجاهلية كما في الاسلام أدى الى أن تكون ملتقى مختلف القبائل العربية ، واتاح لأهل مكة فرصة اقتباس ما خف على السنتهم واستحسنوه من لهجات تلك القبائل . قال الفراء : — كانت العرب

(١) محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة، ص ٧.

(٢) فقه اللغة، ص ١٠٤ .

تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات جميع العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا افصح العرب وخلت لهجتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ » . (١) كما أن موقعها الجغرافي الذي جعلها «ملتقى القوافل التجارية الضاربة بين بلاد العرب الجنوبية وسورية»(٢) هيأ لها أن تكون « مركزاً تجارياً نشطاً وسع افق نظر أهلها واعانهم على الاطلاع على البلاد المجاورة واحوالها » (٣) ، فصاروا تجاراً ماهرين ، وانصرف الى التجارة اكثر سكان مكة ، حتى قيل « أن تسعة اعشار الرزق في التجارة » (٤). وقد ورد ذكر رحلتي قريش التجارية رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام في القرآن الكريم . (٥) فكانت قريش تختار من تلك القبائل القادمة للحج او التي تصادفها في طريقها للتجارة او تتعامل معها افصح الكلمات واعذبها وتهمل من لغتها الكلمات الجافة الخشنة ، فصارت لهجتها افصح لهجة ثم نزل القرآن الكريم بها فسادت لهجتها بقية اللهجات . وقد كشف أحمد بن فارس النقاب عن ذلك فقال : « إن الله جل ثناؤه اختارهم (قريشاً) من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً (ص) فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الحرام الى قريش في امورهم ، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم . ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها « اهل الله » لانهم الصريح من ولد (اسماعيل) (ع) ...

وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السنتها ، اذا اتتهم الوفود

---

(١) الاقتراح، ص ٨١، المزهر ١/١٣٣ .

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ١/٣٤ .

(٣) محاضرات في تاريخ العرب، ص ٩٣ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٨ .

(٥) انظر سورة رقم ١٠٦ (قريش من القرآن الكريم) .

من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى لغاتهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك افصح العرب » (١)

العامل الثاني : — كانت للعرب في الجاهلية أسواق ومواسم يقيمونها على اشهر السنة وأشهرها سوق «عكاظ» (٢) التي كان موقعها بأعلى نجد قريبا من عرفات ، وكانت من اعظم اسواق العرب « تنزلها قريش وهوازن وطوائف من افناء العرب ، غطفان وأسلم ، والاحابيش (وهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة) وعضل ، والديش ، والحيا ، والمصطلق » (٣) وكانت تختلف عن بقية اسواق العرب بأنها سوق عامة يحضرها جميع العرب بخلاف الأسواق الاخرى التي كانت اسواقا محلية . وفي عكاظ — اضافة الى البيع والشراء ومبادلتهم السلع — «كان الخطباء يلقون خطبهم والشعراء يتناشدون الاشعار ويتحاجون ومن له اسيراً سعى في فدائه ، ومن له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة ، ثم يقفلون بعرفة ويقضون مناسك الحج ويرجعون الى اوطانهم ». (٤) ولا يخفى ما كان لمثل هذا المهرجان الادبي الكبير الذي يقام سنوياً قرب مكة ، حيث تلقى فيه الخطب وتنشد الاشعار ، ولقريش فيه المكانة المرموقة ، من اثر في تهذيب لهجة قريش ، فليس من المعقول الا يؤثر مثل هذا المحفل الادبي الكبير في لهجتها وهي تستعرض من كل سنة بأذان مصغية لهجات العرب وتميز بين هذه وتلك فتقتبس افصح الكلمات واعذبها حرساً واوقعها في النفوس ، وبذلك اصبحت لهجة قريش اللغة الادبية العالية التي نظم فيها شعراء الجاهلية وقصائدهم ، ثم نزل معظم القرآن الكريم بها .

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة، ص ٢٣ .

(٢) انظر ذكر هذه الاسواق في المحبر، ص ٢٦٣-٢٦٨ .

(٣) المحبر، ص ٢٦٧ .

(٤) نهاية الارب في معرفة انساب العرب، ص ٤٣٥ .

مراجع البحث

١ — الاقتراح في علم اصول النحو . جلال الدين السيوطي . مطبعة المجتبائي. دلهي ، ١٣١٤هـ .

٢ — البيان والتبيين . عمرو بن بحر الجاحظ . نشر المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٣٢م .

٣ — تأملات عامة في اللهجات العربية . بحث : ج . فانيتنو . مجلة المجمع العلمي العربي . المجلد الخامس عشر . الجزءان الثالث والرابع . آذار ونيسان ١٩٣٧م .

٤ — تاريخ الشعوب الاسلامية . كارل بروكلمان . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٠م .

٥ — تاريخ الأدب العربي . الدكتور ريجيس بلاشير . تعريب ابراهيم الكيلاني . دمشق ١٩٥٦م .

٦ — الخصائص . عثمان بن جني . دار الكتب العربية . القاهرة ١٩٥٢م .

٧ — دراسات في فقه اللغة . الدكتور صبحي الصالح . الطبعة الخامسة . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٧٣م .

٨ — شرح قطر الندى وبل الصدى . جمال الدين بن هشام . نشر المكتبة التجارية . القاهرة ١٩٣٦م .

٩ — الصاحبي في فقه اللغة . أحمد بن فارس. مطبعة المؤيد . القاهرة ١٩١٠م .

١٠ — ضحى الاسلام . أحمد امين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٢ .

١١ — الفاضل . أبو العباس محمد بن يزيد المبرد . مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٥٦م .

١٠ — فضائل القرآن . اسماعيل بن كثير القرشي . تصحيح : محمد رشيد رضا . مطبعة المنار ١٣٤٧ هـ .

١٣ ــ فقه اللغة . الدكتور علي عبد الواحد وافي . الطبعة السادسة مطبعة الرسالة . القاهرة ١٩٦٨م .

١٤ ــ في اللهجات العربية . الدكتور ابراهيم انيس . المطبعة الفنية الحديثة . القاهرة ١٩٦٥م .

١٥ ــ الكامل في اللغة والادب . ابو العباس محمد بن يزيد المبرد . مطبعة الاستقامة . القاهرة . بدون تاريخ .

١٦ ــ كتاب سيبويه . ابو بشر عمرو بن عثمان (سيبويه) . المطبعة الاميرية ، بولاق ١٣١٦ هـ .

١٧ ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . محمود بن عمر الزمخشري . مطبعة المكتبة التجارية الكبرى . مصر ١٣٤٤هـ .

١٨ ــ كيف نشأت العربية . كارلو . نلينو . مجلة الهلال . الجزء الاول ، السنة السادسة والعشرون . اكتوبر سنة ١٩١٧ م .

١٩ ــ لسان العرب ، ابن منظور . الجزء الثالث ، طبعة مصورة عن طبعه مطبعة بولاق .

٢٠ ــ اللغات السامية . تيودور نولدكه . ترجمة الدكتور رمضان عبدالتواب . القاهرة ١٩٦٣م .

٢١ ــ اللغات في القرآن . اسماعيل بن عمرو المقريء المصري . تصحيح : صلاح الدين المنجد . مطبعة الرسالة . القاهرة ١٩٤٦م .

٢٢ ــ مجالس ثعلب . ابو العباس احمد بن يحيي ثعلب . دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٥٦م .

٢٣ ــ محاضرات في تاريخ العرب الدكتور صالح أحمد العلي . مطبعة الارشاد . بغداد ١٩٦٤م .

٢٤ ــ محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة . الدكتور ابراهيم انيس . مطبعة الرسالة ١٩٦٠م .

٢٥ – المحبر . محمد بن حبيب البغدادي . دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد ١٩٣٢ م .

٢٦ – مختار الصحاح . محمد بن ابي بكر الرازي . الطبعة الاولى . دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٦٧م .

٢٧ – المذكر والمؤنث . يحيي بن زياد الفراء . المطبعة العلمية . حلب ١٣٤٥هـ .

٢٨ – المزهر في علوم اللغة وانواعها . جلال الدين السيوطي . مطبعة محمد علي صبيح واولاده بمصر . بدون تاريخ .

٢٩ – معجم مقاييس اللغة . أحمد بن فارس . تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الرابع الطبعة الرابعة سنة ١٣٩١هـ – ١٩٧١م .

٣٠ – مقدمة ابن خلدون . عبد الرحمن بن خلدون . مطبعة مصطفى محمد . القاهرة بدون تاريخ .

٣١ – المواهب الفتحية. الشيخ حمزة فتح الله . المطبعة الاميرية . بولاق١٣١٢هـ .

٣٢ – نهاية الأرب ، ابو العباس احمد بن علي القلقشندي . مطبعة النجاح . بغداد ١٩٥٨م .

٣٣ – النشر في القراءات العشر . ابو الخير محمد بن الجزري . تصحيح علي محمد الضباع . المكتبة التجارية مصر . بدون تاريخ .

٣٤ – نكت الانتصار لنقل القرآن . ابو بكر الباقلاني . دراسة وتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام . نشر : منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١م .

٣٥ – الوجيز في فقه اللغة . محمد الانطاكي . المطبعة الحديثة . حلب١٩٦٩م .

– المراجع الاجنبية –

1. E. Dhorm, Langues et ecritures Semitiques ٨930 .

2. L.H Gray, Introdnction to Semitic Comparative Linguistics ٨934 .

3. The Encyclopaedia of Islam 2 Vol. 1 Leiden 1960 .